

فلسفة العلم عند برتراند راسل

د. ولد الحدوشية بشير*

يعتبر برتراند راسل Bertrand Russell أحد أشهر رواد الفلسفة المعاصرة الذين خاضوا في مجال فلسفة العلوم والرياضيات واللغة وغيرها. وهو يمثل أحد أنصار مذهب الواقعية الجديدة Néo-réalisme الذين يرون أن عالم الأشياء الخارجية موجود بغض النظر عن وجود ذات تدركه. كما يعتبر في مجال مناهج الفكر السائدة رائدا لما يسمى بمنهج التحليل Méthode analytique وهو بصفة عامة منهج يرد كل الأفكار والكائنات إلى أقل عدد ممكن من الأشياء البسيطة التي يتعذر تحليلها بعد ذلك. ولأن راسل يرى أن الفلسفة ذات أهمية بالغة في مجال الواقع وحل مشكلاته، فقد دعا إلى ضرورة إعطاء الفلسفة طابعا علميا، وأن تستقي معاييرها من علوم الطبيعية وليس من الميتافيزياء. ومن هنا كان مأخذ راسل على الفلسفة التقليدية ووقوفها عند حد معالجة قضايا فارغة من المعنى يستحيل دراستها دراسة موضوعية دقيقة. ولحل مشكلة الفلسفة التقليدية هذه، طالب راسل بأن يتم تطهيرها من كل النزعات الميتافيزيقية والغيبية، ودعا الفلاسفة إلى تكريس جهودهم في إزالة الغموض عن المفاهيم والقضايا بإخضاع تلك المفاهيم والقضايا إلى التحليل المنطقي الدقيق¹. وبذلك فقد عمل راسل على حصر مهمة الفلسفة في تعبيد الطريق أمام العلم لكي يحقق مزيدا من النجاح والتطور. ومن هنا يأتي الاشكال التالي: كيف يمكن للفلسفة أن تكون علمية وأن تتجاوز الفلسفات التقليدية القائمة على أسس ميتافيزيقية؟ وبعبارات أخرى، ما هو تصور برتراند راسل لفلسفة العلم المعاصرة والتي تبحث في قضاياها بطريقة علمية؟ فيما يتمثل المنهج الجديد الذي صاغه راسل لفلسفة العلم؟ ما طبيعة وخصائص المعرفة العلمية؟ ما هو تصور راسل لنظرية المعرفة منظورا إليها من وجهة نظر علمية؟ كيف يمكن تقييم آراء راسل حول الفلسفة العلمية أو فلسفة العلم؟

ولفحص وجهة نظر راسل فيما يخص بنية الفلسفة العلمية أو فلسفة العلم التي ينادي إليها الفلاسفة المعاصرين، تقترح هذه الدراسة مسائلة القضايا التالية:

* المركز الجامعي عبد الحفيظ بو الصوف (ميلة).

Abstract : this article aims to present the Russellian conception of the philosophy of science. It contains two parts , the first describes Russel's contributions in this field , in in order to clarify the scientific method of the philosophy of science , the nature and the characteristics of scientific knowledge and , finally , the theory of knowledge. The second part of the study will present a critical analysis of B. Russell's ideas.

Keywords : Knowledge , scientific knowledge , metaphysics , analytical method , neorealism , reality.

¹ بوشنكي، إ. م.، الفلسفة المعاصرة في أوروبا، ترجمة: عزت قرني، الكويت، المجلس الوطني للثقافة، 1992، ص. 99-96.

- منهج فلسفة العلم؛
- المعرفة العلمية؛
- نظرية المعرفة؛
- قيمة تصور راسل لفلسفة العلم.

1. منهج فلسفة العلم:

يرى راسل أن منهج فلسفة العلم يمكن اعتباره منهجا تحليليا منطقيا، ويتمثل في تحليل المفاهيم والقضايا بالارتكاز أساسا على أدوات التحليل المستخدمة في علوم الطبيعة وفي المنطق الرمزي (ويسمى أيضا المنطق الرياضي والذي قد وضع أسسه علماء الرياضيات والمنطق المعاصرون أمثال غوتلوب فريجة G.Frege، أوغستيس دي مورغان A.De Morgan، جورج بول G.Boole، غيساب بيانو G.Peano، وليون كوتورا L. Couturat. وفيما بعد ساهم في تطويره راسل نفسه مع الفرد نورث وايتهيد A.N.Whitehead). ويستهدف التحليل عند راسل حسن فهم عبارات اللغة التي تستخدم في معالجة مسائل وقضايا العلم، كما أنه يستهدف بناء تصور منطقي عن بنية العالم الفيزيائي التجريبي¹.

يقول راسل في مقدمة مؤلفة "معرفتنا بالعالم الخارجي" Our knowledge of external world (1941): "المحاضرات التالية تعتبر محاولة لإظهار طبيعة المنهج المنطقي التحليلي وكفاءته وحدوده. إن هذا المنهج ... قد فرض تدريجيا نفسه علي بشكل متزايدا بوصفه طريقة محددة، وقابلة للتجسيد في قواعد وملائمة ... من أجل الحصول على المعرفة الموضوعية"².

ويقول أيضا في كتابه "فلسفتي وكيف تطورت" (1961) My philosophical development: "إن منهجي في القضايا والمسائل الخاصة بالعلم "هو أنني أبدأ بشيء غامض، محير وعرضه للشك، ولا أستطيع التعبير عنه على نحو دقيق، فأمضي أولا في عملية شبيهة بعملية رؤيتنا لشيء بالعين المجردة، ثم نفحصه بعد ذلك من خلال مجهر، فأجد أنه بتركيز الانتباه تظهر تقسيمات وتمييزات لم يكن أي منها ظاهرا من قبل تماما كما يمكنك من خلال المجهر أن نرى الباسيليات Bacillis في الماء العكر، وهذا ما لا يمكننا إدراكه بدون المجهر"³.

يرى عدد من الباحثين أنه من الصعب تقديم تعريف دقيق لمنهج التحليل عند راسل، إلا أنه يمكن القول بأن منهج التحليل لدى راسل "هو تلك العملية التي بها إما أن ترد المركبات إلى عناصرها البسيطة أو أن نعيد صياغة التعبيرات المحتوية على مركبات رمزية في تعبيرات أخرى أكثر دقة"⁴. من هذا التعريف نستطيع أن نحدد نوعين من التحليل: أحدهما يرتبط بالموضوعات أو الأشياء المادية، والآخر يتعلق باللغة أو الرموز المستخدمة للتعبير عن

¹ Vuillemin . J . la Logique et le monde sensible ، Paris ، Flammarion ، 1984 ، p. 98.

² Ibid . ، p. 103

³ Ibid . ، p. 103-104

⁴ مهران، محمد، فلسفة برتراند راسل، القاهرة، دار المعارف، 1989، ص.336

الموضوعات أي تحليل وترجمة العبارات اللغوية Enoncés linguistiques المحتوية على رموز مركبة إلى عبارات ومفاهيم أخرى بسيطة لا تحتوي على الرموز السابقة، وهو ما يسمى في المنطق الرياضي بالاستبدال Substitution أو التعريف Définition. ومن أدوات التحليل المنطقي التي وضعها راسل لفلسفة التحليل ما يلي: (1) نصل أوكام Rasoir d'Okam. وهو أداة أو قاعدة منهجية تسمح بالاقتصاد المنطقي، أي استبعاد المركبات الزائدة، سواء كانت مركبات بهدف اختزال عدد الكائنات في العالم أو كانت مركبات لغوية بهدف الوصول إلى الحد الأدنى من المفردات. (2) البناء المنطقي. وتعتبر هذه الأداة التحليلية صورة من صور نصل أوكام وتهدف إلى الاستغناء عن الكائنات المستدل عليها التي لا تكون على معرفة مباشرة بها، وتعويضها بما نكون على معرفة مباشرة به. (3) اللغة المثالية. وهي لغة "اصطناعية" أو لغة "كاملة منطقيًا". عبر راسل عن هذه اللغة في كتابه الخاص بالمنطق الرياضي والذي كان عنوانه "مبادئ الرياضيات" Principia mathematica. وبواسطة اللغة المثالية يستهدف راسل تفادي غموض اللغة العادية (أو لغة الحياة اليومية) أثناء إجراء عمليات التحليل المنطقي، فتلك اللغة المثالية يعتبرها راسل قادرة على التعبير الدقيق عن المفاهيم، وهو مهمة تعجز عنها اللغة العادية¹.

2. المعرفة العلمية:

لقد تعرض برتراند راسل إلى طبيعة المعرفة العلمية والمنهج العلمي في عدد من الكتابات. فهو يرى بأن المنهج العلمي يتمثل في مجموعة من المراحل الأساسية وهي كما يلي: (1) ملاحظة الوقائع ذات الدلالة. (2) الوصول إلى فرض يفسر تلك الوقائع. (3) استنباط نتائج من هذا الفرض يمكن اختبارها بوسائل أمبريقية. ويعتبر راسل المعرفة العلمية بأنها تتميز بمجموعة من الخصائص هي: أ. خاصية البناء النسقي: يقصد بهذه الخاصية أن العلم في مسيرته من أجل الوصول إلى فهم ومعرفة الظواهر يتوقف بين الحين والآخر من أجل أن يعدل من قوانينه ونظرياته وذلك بنقد وتمحيص ما سبق أن تم صياغته من قوانين ونظريات. والعلم لا يلغي هذه المعارف السابقة وإنما يعمل على تركيبها في قانون أعم أو في نظرية أكثر عمومية، وبذلك تشكل المعارف السابقة والمعارف اللاحقة نسقا علميا جديدا يتميز بالشمول عما سبق ويمكن تطبيقها على أوسع وأكبر كمية من الظواهر.

ب. التركيز على الوقائع: للوقائع Faits أهمية كبرى في العلوم الأمبريقية، ويرتبط بدور الوقائع أمران هامان في المعرفة العلمية، يتعلق الأول بالموضوعية. حيث أن المنهج العلمي يتطلب أن تُطرح جانبا ذاتيتنا ورغباتنا بهدف الكشف عما تخبر به الوقائع الأمبريقية من حيث تأديتها إلى قوانين موضوعية عامة. ويقول راسل بصدد ذلك: " أن المنهج العلمي وثيق الصلة بفضيلة اجتماعية هي النزاهة"، أي أن يحصر العالم على ملاحظة الوقائع كما هي في الواقع Réalité وليس كما تبدو في ذاتيته، فالعلم يتمثل في وصف الأشياء وتقرير حالتها. ويتعلق الأمر الثاني

¹ مهران، م.، المرجع السابق، ص. 372-354

بأهمية "التجربة" التي تعتبر محك الصدق في بناء المعرفة العلمية. فالتجربة تعمل على تحقيق الفروض والقوانين والنظريات التي يقترحها العالم في أول مراحل البحث، كما أن إذا اختلف العلماء بصدد تفسير واقعة معينة فإنهم يلجؤون إلى التجريب من أجل التثبت وحسم الخلاف. ج. استخدام القياس والدقة الكمية: إن ما يكسب المعرفة العلمية دقة وموضوعية في علوم الطبيعية هو استخدامها للقياس Measure وارتكازها على دقة التكميم. إن أرسطو في دراسته للحركة كان يقوم بسرد لأنواع الحركة: حركة صاعدة، حركة هابطة، حركة دائرية، إلخ. إلا أن غاليلي Gallilè عمل على تغيير النظرة الكيفية لظواهر الحركة إلى أسلوب رياضي يهدف إلى استخلاص القانون الكمي الذي يحدد السرعة (سرعة الحركة) وما يؤثر فيها، وبذلك ساهم بشكل كبير في تطور معرفة الطبيعة أو علم الفيزياء. وحسب راسل تمتاز الدقة الكمية بأنها تزيد من قوة الاستدلال الاستقرائي في العلوم الأمبريقية، فإذا صاغ العالم فرضية يُقدر بمقتضاها كمية معينة يمكن أن تخضع للملاحظة، ثم تثبت الملاحظة بعد ذلك أن الكمية لها نفس المقدار الذي سبق أن افترضه. وعندئذ يستطيع أن يتحقق بيقين من صدق استدلالاته على أساس ما أبدته الملاحظة من توافق دقيق مع الافتراضات النظرية.

د. المعرفة العلمية تقوم على التحليل. يقدم راسل هنا تعريفا إضافيا لمفهوم التحليل قائلا بأنه منهج الانتقال من المجهول إلى المعلوم، ويرى أن نجاح هذا المنهج لا يتوقف تطبيقه في الفلسفة ومباحثها التقليدية فقط، بل إن التحليل هو خاصية أساسية من خصائص المنهج العلمي، ويرى أن التحليل هو بمثابة نظرة نقدية يتناول بها العالم ما يواجهه من حوادث مركبة وذلك بتحليلها إلى عناصرها البسيطة. إن كل حدث هو نتيجة لعدد من العلل، ويمكننا معرفة تأثير كل علة على حدة متى استطعنا فصلها عن بقية العلل. والمثال الذي يقدمه راسل هنا من الميكانيكا: القمر تجذبه الأرض والشمس معا. فإذا أردنا حساب حركته، يجب أن نعرف الأثر الذي تحدثه الأرض والشمس على انفراد، فنتساءل ماذا كان ليحدث لو كان القمر منجذبا بالأرض وحدها؟ وماذا كان ليحدث لو كان القمر منجذبا بالشمس وحدها؟ ثم ماذا يكون الأمر عندما ينجذب بالأرض والشمس معا.

فبدون ذلك التحليل ان ما هو في الواقع عدد من المشكلات المركبة قد نظنه مشكلة واحدة، لذلك فإن فصل الظواهر والعلل على ذلك النحو ثم إعادة تركيبها يعتبر واحدا من إجراءات المنهج العلمي في بناء المعرفة العلمية، ويستحيل أن نفسر كل شيء مرة واحدة، ولا نستطيع التوصل إلى صياغة قوانين علمية إلا إذا قمنا بعزل الظواهر والعلل واحدة واحدة من أجل معرفة سلوكها وهي منفردة وسلوكها وهي مجتمعة، وبذلك نستطيع تحديد العلاقات السببية تحديدا رياضيا دقيقا¹.

3. نظرية المعرفة:

¹ مهران، م.، المرجع السابق، ص. 139-143

إن نظرية المعرفة التي يقدمها برتراند راسل - تماما مثل نظريته حول طبيعة المعرفة العلمية - استلهمها من مصادر علمية مختلفة. ومنها اطلاعه الواسع ومعرفته المعمقة بطبيعة وخصائص المعرفة العلمية كما تتجلى في العلوم الطبيعية، ومعرفته الواسعة بما أحدثته نظرية النسبية لدى أينشتاين من ثورة معرفية في مجال العلوم الفيزيائية، إضافة إلى معرفته وتأثره بالتحليلات الاستمولوجية للمعرفة العلمية لدى عالم الفيزياء ارنست ماخ، ومعطيات علم النفس المعرفي.

تناول راسل موضوع نظرية المعرفة في عدد من مؤلفاته مثل "تحليل العقل" Analysis of mind، و"تحليل المادة" Analysis of matter، و"المعرفة الإنسانية، مجالها وحدودها" Human knowledge، "its scope and limits". وأكد راسل أن مصدر كل تفكير يستمد عناصره من العالم الخارجي الموضوعي، وما نسميه بالحوادث العقلية أو الذهنية mental events هي جزء من العالم الطبيعي.

وتتم المعرفة الإنسانية عن طريق الإدراك الحسي والإرادة، وهما عملية واحدة يسميها راسل "الفعل" action. وتعتبر الصور الذهنية بمثابة انعكاس لإحساسات انطبعت أو سجلت في الذاكرة، ولهذه الصور الذهنية دور هام في عمليات الفكر لأنها عبارة عن مستودع للمعلومات، وهذه الصور المقابلة لإحساسات يمكن تحديدها بالرجوع إلى أسبابها، فهي تحدث بسبب ترابطها مع الإحساس، وتعتبر الذكرة - التي تستند إليها عملياتنا العقلية - بمثابة قدرة على استعادة مادة سابقة أو موقف أو حدث مضى، أي أنها القدرة على تكرار أحداث ماضية سواء كانت أحداثا لغوية أو حركية أو أفكارا خاصة أو عامة.¹ وهكذا فإن راسل يقترح من ماخ فيما يخص نظرية بناء المعرفة على أساس نزعة تجريبية حسية.

في كتابه "معرفتنا للعالم الخارجي" Our knowledge of the external world يتناول برتراند راسل مسألة الإدراك الحسي²، من وجهة نظر تختلف كلياً عما سبقها، وبعد كثير من الشك في موضوعه، إلى حد أبعاد كل ما يرقى إليه الشك، يبني العالم الذي نعرفه بقليل من الفرضيات والعناصر الأكثر بساطة.

يلاحظ راسل أن معظم الفلاسفة يفترضون بشكل ضمني ومسبق وجود عقول أخرى مدركة، لكنهم يواجهون بحقيقة أن الشيء نفسه قد يظهر لشخصين مختلفين مختلفا، أو حتى لشخص واحد في زمنين مختلفين مع أنه (هذا الشيء) لم يتغير. وكانت هذه الإشكالات كفيلاً بأن تقودهم إلى شك كلي في وجود واقع خارجي، خارج العقل (وهو موقف معظم المثاليين)، أو أن هذا الواقع موجود فعلاً لكننا نعجز عن معرفته (وهو موقف كانط).

¹ بوشنكي إ.م.، المرجع السابق، ص.100-105.

² Vuillemin . J . . la Logique et le monde sensible ، p.123-128

أما منهج راسل في الخروج من هذا الاشكال، فهو يقوم على حذف تلك الأشياء المسماة فيزيائية من الكون، مع الاحتفاظ بعلم خارجي موجودا بالفعل. لكن ذلك يضعنا أمام سؤال يفرض نفسه مباشرة: فإذا لم يكن العالم الخارجي مكونا من أشياء فيزيائية (مادية)، فمما يتكون إذا؟ يتألف الكون، يجيب راسل، من معطيات الحس Données du sens. هذه المعطيات الحسية ليست أشياء فيزيائية وانما هي ظواهر مثل رنين صوت أو مساحة من اللون، وهي نتيجة معرفة مباشرة يجري ادراكها في الإحساس. انها "موضوعات محسوسة" وليست أشياء فيزيائية. يميز راسل بين "1) احساسنا، وهو حالة في العقل ناتجة عن انفعالنا بموضوع حسي، و2) الموضوع الحسي الذي ننفعل به من خلال الإحساس. وعندما أتحدث عن موضوع حسي، فيما يقل راسل، فيجب ألا نفهم من ذلك أي أعني شيئا، كالتأولة مثلا. ان ما أعنيه هو تلك الساحة من اللون التي أراها عندما أنظر الى الطاولة، أو تلك الصلابة التي أحسها عندما أضغط على جزء منها، أو ذلك الذي أسمع عندما أنقر عليها. وكل حالة من الحالات تلك هي موضوع محسوس. وادراكنا لذلك الموضوع المحسوس هو ما أسميه إحساسا¹.

ما هي الطاولة إذا " تلك التي ننسب اليها، عمليا، وجودا يبدو مقنعا"؟ هي، حسب إجابة راسل، تركيب منطقي للمظاهر المختلفة التي تقدمها معطيات الحس. وهذه المظاهر تختلف من انسان الى آخر تبعا للخصوصية التي يملكها كل عقل في نظرتة الى العالم. وهكذا فان عالما منظورا اليه من وجهة نظر عقل ما، هو غيره منظورا اليه من وجهة عقل آخر. ومع ذلك فبالإمكان القول: بالرغم من الفروقات القائمة بين هذين العالمين المختلفين، اللذين يدركهما الشخص (أ) والشخص (ب) كلا على حدة، فان كلا منهما موجود حقا كما يجري ادراكه، بل ويمكن أن يكون ما هو عليه حتى وان لم يتم ادراكه. هناك إذا عدد لامتناه من هذه العوالم، عوالم بعدد الأمكنة التي نقف فيها، حيث أن كل واحد من تلك الأمكنة هو موقع وجهة نظر من العالم، خاصة و متميزة. وهكذا فان العلم ليبدو، من وجهات تختلف، في جوانب مختلفة. ويبدو منطقيا بالتالي، يضيف برتراند راسل، أن كل جانب من جوانب الكون، منظور اليه من مكان ما، هو جانب قائم بنفسه مستقل عن العقل، الأمر الذي يعني أن هناك واقعا فعليا يقوم في الخارج، خارج العقل.

إن العالم، منظورا اليه من أي مكان هو حسب لغة راسل، مجموعة أو نظام من "السطوح المرئية". وإذا كان لشخصين أن ينظرا من مكانين متقاربين، فانهما سوف يلتقطان سطحين متشابهين جدا، ويمكن أن يشيرا اليهما بنفس الألفاظ، فيؤكدان أنهما يشاهدان نفس الطاولة لأن الفرق بين الطاولة التي تبدو للأول والطاولة التي تبدو للثاني، هو من الضآلة بحيث يكاد لا يرى. وهكذا فان الأشياء يمكن أن تغدو، بفعل التشابه، متماثلة لشخصين مختلفين. وهناك بين المكانين المتقاربين أمكنة أخرى أكثر تجاورا بلا شك، بحيث يغدو العلم منها أكثر تماثلا.

¹ Op.cit . p. 126

تقييم تصور راسل لفلسفة العلم

نشر الآن في مناقشة برتراند راسل: في معرض حديثه عن فلسفة العلم أو الفلسفة العلمية الجديدة والمنهج الفلسفي الجديد الذي ابتدعه لها مريداً بذلك تجاوز الفلسفات التقليدية، إن راسل ينتقد الفلسفات الكلاسيكية قائلاً بأنها ميتافيزيائية وأن مناهجها تنحصر في مجرد التأمل القبلي وتعجز عن التفكير بطريقة علمية تستوعب نتائج العلم وتقدم على أساسها مواقف وتصورات حول المسائل التي تبحثها الفلسفة المبنية على أسس علمية دقيقة. فتلك الفلسفات، وانطلاقاً من مناهجها الماورائية المعرقة في التأمل القبلي، لا تعمل إلا على البحث في متاهة "الحقائق المطلقة" التي تدعي أنها تصل إليها بواسطة التفكير العقلي القبلي والمجرد. في حين أن مثل هذه الموضوعات لا يمكن للفكر الإنساني ادراكها. إن الفلسفات الكلاسيكية، حسب رأيه، تجازف بنفسها وتعمل على اقحام ذاتها في البحث أو التفكير غير المجدي عن حقيقة الكون ككل وفي حقيقة عدد من المسائل والقضايا التأملية الأخرى المرتبطة بالدين والأخلاق وعلم الجمال وغيرها، والتي تبحثها بواسطة تفكير ميتا فزيائي تأملي مغرق في التجريد الخالص، والذي لا يمكنه إلا التوصل إلى نتائج فارغة من المعنى ولا يمكن إخضاعها إلى محك التفكير الواقعي.

إن تاريخ الفلسفة (أي الفلسفة السابقة على برتراند راسل) تعتبر في نظر فيلسوفنا الإنجليزي، راسل، بمثابة سجل لمجموعة من الأحكام والتصورات التي أطلقها الفلاسفة التقليديون على الوجود ككل، على الكون في مجموعته، على الحياة في معناها الشمولي. وبكل ما اشتملت عليه هذه الأحكام وتلك التصورات من نظرات دينية وأخلاقية وجمالية وطموحات لبلوغ الحقائق الماورائية الكلية أو المطلقة – التي كان يعتقد بأنه من الممكن الوصول إليها والولوج في قلبها ونواتها بواسطة التفكير المجرد أو التأمل العقلي الخالص – لم تكن في الواقع إلا تعبيراً عن أمزجة الفلاسفة ومخيالهم الجموح وتجاربهم الشخصية وتفكيرهم العامي. وراسل ينظر إلى الفلسفة بهذا المعنى على أنها فلسفة غير علمية. ويقرر تقديم بدلاً منها فلسفة علمية أو فلسفة تستخدم المنهج العلمي، والفلسفة الجديدة بهذه الميزة عند راسل هي الفلسفة التي لا تكتفي فقط بإخراج الدين والأخلاق وعلم الجمال من حسابها، بل تكف أيضاً عن تقديم تصورات تتعلق بالوجود ككل.

إن أفكار راسل لا تلقى كلها صدى إيجابياً عند الفلاسفة الذين اطلعوا ودرسوا نظرياته بعمق. ولعل بعض السبب في ذلك هو أنه لو كان موقف راسل من الفلسفة موقفاً صحيحاً كلياً لما بقي هناك مكان للفلسفة. إذ أنه يرجع موقع الفلسفة ومناهجها إلى علوم الطبيعة (الفيزياء) والرياضات والمنطق الرياضي. إن جوهر المسألة بين راسل والفلاسفة إنما يتعلق بموضوع الفلسفة ومناهجها. إذ يرى هؤلاء الفلاسفة أن وظيفتهم تقوم في تحصيل جوانب المعرفة كافة، وأن يقدموا موقفاً من العالم ككل يكون أكثر شمولاً من حدود أي علم من العلوم الوضعية

الأخرى. ان هؤلاء الفلاسفة الكلاسيكيون يرون بأن وظيفتهم تكمن في أن يستخلصون بطريقة عقلية خالصة مجموعة مبادئ معينة تسهم في رسم ما يمكن أن يكون عليه الكون ككل. لا يهتم الفيلسوف الكلاسيكي إذا بالعلم، وانما بطبيعة الكون الذي يقتضيه وجود العلم، والفيلسوف ليس معنيا كذلك بالتجربة في ذاتها وانما بالشروط والفرضيات المسبقة التي يفترض وجودها كيما تكون التجربة ما هي عليه¹.

هذا التصور لغاية الفلسفة هو موضع نقد راسل والكثير من التجريبيين والواقعيين المحدثين. فهو يعتقد أن مناهج التفكير القبلي التي تسود الفلسفة لن تمكنها، كما لم تمكنها يوما، من بلوغ نتائج ملموسة. على الفلسفة إذا أن تقترب من العلوم المتخصصة الأخرى، وأن تكون فلسفة علمية، فلسفة علم تبحث في مسائل وقضايا العلم بعيدا عن التأملات الميتافيزيقية، وأن تتقدم من خلال المناهج العلمية لتصل الى نتائج خاصة بها. على الفلسفة، فيما يرى راسل، أن تتناول مسائلها وتحاول حلها بنظرة علمية. فهي ليست ملزمة بالتالي بتقديم نظرية شاملة للكون، وليس هناك من حقيقة فلسفية تتناول الكون ككل بمعزل عن الحلول الصحيحة التي تتوفر للمسائل العلمية المحددة.

إذا كان موقف راسل محقا فان الفلسفة لتغدو في شطرها الأعظم بلا قيمة. أما إذا كان مخطأ فان أملنا ببلوغ حقيقة الكون وحقائق أخرى متعلقة بمسائل تأملية متعددة (في مجال الدين والأخلاق وغير ذلك) سوف يظل باق، وذلك من خلال المناهج التي اعتادت الفلسفة الركون اليها. ثم ان الفلاسفة، وبمعزل عن مدى صحة موقف راسل، سوف يستمرون، ولأسباب كثيرة، بالتفلسف ارضاء لفضولهم الغريزي الذي يبدو أمرا أبديا، وتيقنا من أثر التأمل الفلسفي السامي في العقل.

ورغم أننا سوف نتجنب الاسهاب، الا أنه من الضروري ايراد اعتبارين اثنين يتناولان ثورة راسل في مجال مناهج الفلسفة والنتائج التي تبلغها:

1. إن النقد الذي يوجهه برتراند راسل ضد مناهج الفلسفة التقليدية هو نفسه نتاج تلك المناهج. فالنتيجة التي يصل اليها راسل وفحواها أن لا جدوى من التفكير الفلسفي الذي يتناول الكون ككل ومختلف المسائل التأملية الأخرى هي نفسها نتيجة تفكير فلسفي في الكون ككل وفي القضايا التأملية المتنوعة، كما أنها محصلة تفكير في النتائج التي تصل اليها العلوم المتخصصة، وفي أهمية تلك النتائج في موقفنا من الكون ككل ومن كافة المسائل الفلسفية التأملية الأخرى. وتتضمن نتيجة راسل، كذلك، حكما يتناول طبيعة الكون وطبيعة مختلف القضايا التأملية. ولهذا الحكم مضمونه الفلسفي كما أنه ثمرة مناهج فلسفية. ورغم أن ذلك الحكم يسعى الى اثبات أن حقيقة الكون وحقيقة مختلف المسائل الفلسفية التأملية لا يمكن بلوغها من خلال

¹ يوشنكي إ.م، المرجع السابق، ص. 111-113.

الفلسفة التقليدية، إلا أنه حكم فلسفي وتفكير فلسفي. وإذا كانت كل النتائج التي نبليها بمناهج تقليدية نتائج تفتقر إلى اليقين، فإن حكم برتراند راسل يفتقر بدوره إلى اليقين.

2. يقدم برتراند راسل نظرية المعرفة على أسس تجريبية حسية، ومن الجدير بالذكر أن مسألة أخطاء الإدراك تشكل إحدى أكثر قضايا الفلسفة صعوبة. وحين يقول راسل أن كل ما يبدو للحس حقيقي، فإن ذلك يسري على الموضوعات التي نتخيلها ذاتيا وتلك التي تعرض علينا في الأحلام. فإذا قبلنا رأي راسل أن موضوعات الحس لا تختلف في شيء عن احساساتنا بتلك الموضوعات، فمن الواضح إذ ذاك أن لا مكان لأخطاء الحس أو للأوهام.

أما إذا كنا غير قادرين على مجازاة راسل في موقفه المشار إليه، مستندين إلى واقعية عفوية تميز بين الموضوع الحسي (أو الشيء) من جهة، وفكرتنا عنه من جهة أخرى، فإن واقعية كهذه تقدم معيارا للخطأ لعله أكثر اقناعا. وبيان هذا الموقف العفوي أننا نعتبر فكرة ما صادقة إذا كانت تقابل شيئا فعليا موجودا باستقلال عنها؛ وهي باطلة أو وهم إذا لم يكن هناك ما يقابلها. إن أفضلية معيار كهذا إنما تكمن في مقارنته لصدق فكرة ما بالاستناد إلى شيء آخر غير ذاتها؛ لا أن نكتفي باليقين الذي يمنحه الفكر لذاته. إن الموقف العفوي هذا يمنح العقل فاعليته، وهو أكثر من مجرد المعطيات الحسية التي تقدم له، ويمكن بذلك تفسير قيام الخطأ والوهم. أما موقف راسل فينزع عن العقل هذه الفاعلية.

إن راسل يمثل، في نظر مؤرخي الفلسفة، أحد الفلاسفة الأكثر أهمية في القرن العشرين¹. ومن الجدير بالذكر أن فلسفة العلم التي صاغها راسل تمثل في نظر العديد من الفلاسفة والعلماء المعاصرين اسهاما جديدا في الفكر الفلسفي. فالمنهج الجديد الذي قدمه للفلسفة يعتبر أحد الدعائم الأساسية لفلسفة العلم المعاصرة. كما أن نظرية المعرفة التي ألفها راسل - والتي استقاها من مصادر علمية (نظرية النسبية لأينشتاين، العلوم الفيزيائية المعاصرة بشكل عام)، وابستمولوجية متقدمة (تحليلات عالم الفيزياء الألماني ماخ للفكر العلمي الفيزيائي، تحليلات كانط لفيزياء نيوتن) - قدمت تصورا جديدا عن معرفة الإنسان بالظواهر الطبيعية، والظواهر العلمية بشكل عام، وهو تصور يستوعب النتائج التي انتهت إليها العلم.

ولقد كان لأفكار راسل حول منهج الفلسفة ونظرية المعرفة تأثيرا كبيرا على الفلاسفة الذين أتوا من بعده؛ ومن هؤلاء مدرسة التجريبية المنطقية التي أنشأتها جماعة من العلماء في الفيزياء وفي الرياضيات والمنطق الرياضي وفي الاقتصاد وهم موريس شليك، فرانك فيليب، همبل، رايشنباخ، وكارناب وغيرهم. يضاف إلى ذلك تأثير منهج التحليل المنطقي على كبار فلاسفة اللغة من أمثال فيتجانشتاين. كما أن التحليل المعمق الذي قدمه راسل حول خصائص المعرفة العلمية قد ساهم به في تقديم تصور جديد ووجيه حول طبيعة المعرفة العلمية والفكر العلمي. ولقد كان لنظرية راسل هذه أثر بليغ ليس فقط على فلاسفة العلم، بل

¹ وايت، مورتن، عصر التحليل، فلاسفة القرن 20، ترجمة: أديب يوسف، القاهرة، منشورات وزارة الثقافة، 1982، ص. 78

أيضا على عدد من علماء الفيزياء من أمثال ماكس بلانك وغيره، وعلى العديد من العلماء المختصون بالعلوم الاجتماعية والإنسانية من أمثال أوجيرن، زيتريج، لازارسفيلد، لوندبرج، تشابين وغيرهم. وكل هؤلاء اعتبروا نظرية راسل المعنية بمثابة تحليل شامل ومدسق لبنية المعرفة العلمية والفكر العلمي.

خاتمة:

تعرضنا في هذه الدراسة لمسألة هامة في الفلسفة المعاصرة وهي فلسفة العلوم وبالضبط منظور برتراند راسل حول هذه الأخيرة، فلقد أدت مواكبة فلسفة راسل العلمية لتطور العلوم في الوقت المعاصر (تطور علم الطبيعة بفضل أينشتاين، تطور الرياضيات بمجيء الرياضيات اللا-ايقليدية، ظهور المنطق الرياضي...) الى اثناء المباحث الفلسفية بصفة عامة ومن بينها نظرية العلم ونظرية المعرفة. وقد صبغ اتجاه راسل الفلسفي نفسه بصبغة علمية. وهذا ما جعل البعض يرون بأن فلسفة راسل نجحت في تجاوز الفلسفات التقليدية القائمة على أسس وتوجهات ميتافيزيائية. غير أن البعض يرون بأن راسل لم يتخلص تماما من بعض المبادئ الفلسفية التي ثار عليها واعتبرها بالية مثل مبادئ العلية، والجوهر، والاطراد¹. ولهذا نحن نعتقد أن في ذلك إشارة الى عجز برتراند راسل - والفلاسفة التجريبيين عامة - عن تفسير معارفنا بالاعتماد على أسس تنبع من المعرفة التجريبية وحدها، فان راسل، وغيره من التجريبيين يلجؤون الى بعض المبادئ والمصادر كبداية لمعارفنا، ونفاجأ بأنها مبادئ ذات طبيعة قبلية مما كانوا يرفضونه من قبل.

أخيراً، يمكننا القول بأنه من الجدير الاعتراف بأن برتراند راسل استطاع تجاوز الفلسفات التقليدية. وذلك بفضل تمكنه من ابتداء وصياغة منهج جديد وأصيل لفلسفة العلم، إضافة الى الاسهام في بناء فلسفة علمية والبحث في العديد من قضاياها. وبذلك يعتبر هو من وضع اللبنة الأولى لفلسفة العلم المعاصرة والتي كانت بمثابة ارهاص لمن أتوا بعده من الفلاسفة المعاصرين الذين اجتهدوا في بناء صرح فلسفة العلم المعاصرة. إن اسهامات راسل في مجال فلسفة العلم جد معتبر، ولقد كان لها أثر بالغ وواضح على العديد من كبار فلاسفة العلم وأيضا على كثير من العلماء. وذلك لأن فلسفة برتراند راسل استلهمت مضمونها من الثورة العلمية التي شهدتها مجال العلوم الفيزيائية على يد أحد أكبر علماء الفيزياء المعاصرين وهو أينشتاين. ضف الى ذلك تأثره بالاكتشافات الجديدة في مجال المنطق والتي حدثت في القرن التاسع عشر على يد علماء الرياضيات (غوتلوب فريجة وجورج بول وغيرهم)، وأقصد بذلك المنطق الرياضي. ولكن إذا كان من الواجب الاعتراف بأن الفلسفات التقليدية لم تستطع حقا أن تنجز ما حققه الفيلسوف راسل، فان ذلك لا يعني أن هذه الأخيرة (أي الفلسفات الكلاسيكية) لا قيمة لها. لا بل ان الانسان يعتبر، كما سبق لي أن أشرت، فضولي بالفطرة

¹ المرجع السابق، ص. 82-85.

والغريزة. ولهذا سوف يستمر، ولأسباب ودواعي وحوافز كثيرة، بالتفلسف ارضاء لفضوله الغريزي الذي يبدو أمراً أبدياً، وتيقنا من أثر التأمل الفلسفي السامي في العقل.

قائمة المراجع:

1. بوشنسكي، م.، الفلسفة المعاصرة في أوروبا، ت. عزت قرني، الكويت، المجلس الوطني للثقافة، 1992
2. رايشنباخ، هانز، نسأة الفلسفة العلمية، تر. فؤاد زكريا، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1979
3. فرانك، فيليب، فلسفة العلم، تر. علي ناصيف، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1983
4. مهران، محمد، فلسفة برتراند راسل، القاهرة، دار المعارف، 1989
5. وايت، مورتن، عصر التحليل، فلاسفة القرن 20، تر. أديب يوسف، القاهرة، منشورات وزارة الثقافة، 1982
6. *Vuillemin , J. , la Logique et le monde sensible , Paris , Flammarion , 1984*